شكري فيصل
الأديب الذي جنت عليه السياسة
١٩١٨-١٩٨٥

أ. عيسى فتوح(*)

الأستاذ الدكتور شكري عمر فيصل أديب مرهف الإحساس، وناقد رصين، ومجمعي بارز، وأستاذ جامعي متميّز، وسياسي جنت عليه السياسة... وُلد في حي العقيبة بدمشق القديمة لأب حمصي الأصل، وأم دمشقية هي أخت العالم الشيخ محمود ياسين الذي كان صاحب ومدير (التهذيب الإسلامي) الابتدائية الخاصة، في حي (المسكية) قرب الجامع الأموي، وفي هذه المدرسة تلقى شكري دراسته الأولى، وفي بيت خاله نشأ وترعرع، وعلى يديه تربى، وفي مجالـه تفتّح، وفي مكتبته كانت مطالعاته كما يقول.

انتقل بعد ذلك إلى مدرسة (نموذج البحصة) الرسمية التي أصبح اسمها فيما بعد (مدرسة معاوية) ثم إلى (مكتب عنبر) لمواصلة دراسته الإعدادية والثانوية، حيث تلمذ للأستاذين زين العابدين التونسي (١٨٨٨-١٩٧٧) وأبي الخير القواس في السنتين الأولى والثانية، وللأساتذة محمد البزم (١٨٨٧-١٩٥٥) وسليم الجندي (١٨٨٠-١٩٥٥) وعبد القادر المبارك (١٨٨١-١٩٤٥) في السنوات التالية.

(*) باحث في الأدب واللغة من سورية.

حين نال شهادة الدراسة الثانوية بقسميها العلمي والفلسفي عام ١٩٣٨ التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة، وفي عام ١٩٤٤ نال شهادة الإجازة في الآداب بدرجة الامتياز، وكان الأول من خريجي تلك السنة، ولما عاد إلى دمشق درَّس اللغة العربية في ثانوياتها، وواصل في الوقت نفسه دراسة الحقوق في الجامعة السورية، فنال الإجازة فيها عام ١٩٤٦.

أُوفد عام ١٩٤٦ إلى جامعة القاهرة لتحضير الدكتوراه في الآداب، فعمل إلى جانب دراسته ملحقاً ثقافيًّا في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية التي كان يشرف عليها الأستاذ أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤)، فكان شكري خير معين له في وضع الترتيبات التي آلت بالإدارة إلى ما دُعي فيما بعد بـ(المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم).

في ١/ ٧/ ١٩٤٨ نال شهادة الماجستير في الآداب بدرجة جيد جدًّا، وكان موضوع أطروحته (مناهج الدراسة الأدبية - عرض ونقد واقتراح)، وفي عام ١٩٤٩ حصل على دبلوم معهد اللهجات العربية (قسم اللغات الشرقية)، وفي ٢٥/ ١٠/ ١٩٥١ نال شهادة الدكتوراه في الآداب بدرجة جيد جدًّا، وكان موضوع أطروحته (المجتمعات الإسلامية في القرن الأول للهجرة - نشأتها ومقوماتها وتطورها اللغوي والأدبي)، ولما عاد إلى دمشق عيِّن عضواً في لجنة التربية والتعليم المكلفة بتخطيط برامج التعليم ومراقبة الكتب المدرسية، وكان لا يترك لنفسه ساعة فراغ إلا أسهم بها في النشاط الثقافي للجمعيات والنوادي الدمشقية كجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الإخوان المسلمين، والنادي العربي وغيرها.

في عام ١٩٥٢ عيِّن أستاذاً مساعداً للأدب العربي القديم في كلية الآداب بجامعة دمشق، وفي عام ١٩٥٦ صار أستاذاً بلا كرسي في الكلية، فأوفدته الجامعة إلى ألمانيا للزيارة والاطلاع، فتابع هناك دراسة اللغة الألمانية التي بدأها في جامعة

القاهرة، واختار بعض المخطوطات الموجودة في جامعات توبنغن وماربورغ وبرلين لمكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق.

وفي عام ١٩٥٧ مثّل سورية في مؤتمر الأدباء العرب الثاني الذي عُقد في (بلودان) بسورية، وفي عام ١٩٥٨ مثّلها في مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في الكويت، حيث ألقى بحثاً بعنوان (البطولة في الأدب العربي الحديث منذ سقوط بغداد حتى فجر النهضة الحديثة)، وفي عام ١٩٦٠ سمّي عضواً في المؤتمر العاشر لهيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث ألقى بحثاً بعنوان (ما أسهم به المؤلِّفون العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة الأدب العربي)، كما حضر ندوة التعريب التي أقيمت في ليبيا عام ١٩٧٤، حيث ألقى بحثاً بعنوان (عوائق في طريق التعريب) ومؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في ليبيا أيضاً عام ١٩٧٧، حيث ألقى بحثاً قيِّماً بعنوان (مشكلة اللغة العربية في الأدب المعاصر)، وندوة اتحاد المجامع العربية التي عقدت في عمّان عام ١٩٧٨، حيث ألقى بحثاً بعنوان (اللغة العربية خلال ربع قرن في ميدان التعلّم والتعليم)، وندوة التعريب التي عقدت في الخرطوم عام ١٩٧٩، حيث ألقى بحثاً بعنوان (موقع الندوة في حركة التعريب) وندوة اتحاد المجامع العربية التي أقيمت في الرباط عام ١٩٨٤، وكان بحثه فيها بعنوان (تعريب التعليم العالي والجامعي في ربع القرن الأخير)... والحقيقة أنه ما كان يتأخر عن الاشتراك في أي مؤتمر يدعى إليه، أو أية ندوة يستطيع أن يساهم فيها ببحث أو دراسة...

لقد كان إصرار الدكتور شكري فيصل على حضور هذه المؤتمرات والندوات، وتحقيق رغبات الداعين إليها، موضع لوم وانتقاد بعض أصدقائه، فقد اتهمه الدكتور إبراهيم الكيلاني (١٩١٦-٢٠٠٤) بالسعي الدؤوب وراء المال والتعويضات المادية، وهذا ما أرهقه وأوهن قلبه المريض أصلاً، ولم تتجاوز المدة الفاصلة بين آخر بحث قدمه في ندوة المجامع العربية بالرباط ووفاته بضعةَ أشهر، فقد توفي يوم

السبت في الثالث من شهر آب ١٩٨٥ في مدينة (جنيف) بسويسرة إثر عملية جراحية في القلب، وفي العاشر منه نقل جثمانه إلى المدينة المنورة في المملكة العربية السعودية حيث دفن فيها، وفي ٣٠/ ١٠/ ١٩٨٥ أقيم له حفل تأبيني في اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق الذي كان عضوًا فيه، تكلم فيه نخبة من رجال الأدب والفكر، منهم الدكتور عدنان الخطيب (١٩١٤-١٩٩٥) الذي تحدث عن عمله في الصحافة السياسية وانتقاله فيما بعد إلى الصحافة الأدبية.

فاتني أن أشير إلى أن الدكتور شكري فيصل رشّح نفسه عام ١٩٥٤ للانتخابات النيابية عن مدينة دمشق لكنه لم يوفَّق، فلما قامت الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ رشح نفسه للانتخابات (الاتحاد القومي) فنجح، ولم يلبث أن ظهر اسمه في عداد أعضاء (مجلس الأمة) عن سورية... وفي عام ١٩٦١ اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، واستُقبل في جلسة علنية في الأول من شباط ١٩٦٢، واحتل المقعد الذي خلا بوفاة الأستاذ الرئيس خليل مردم بك (١٨٩٥-١٩٥٩)، وأسندت إليه عضوية لجنتي المجلة والمطبوعات والمخطوطات وإحياء التراث، وفي عام ١٩٧٢ انتخب أميناً عامًّا للمجمع، ولم يمنعه هذا المنصب من متابعة التدريس الجامعي في كل من جامعة دمشق، والجامعة اللبنانية في بيروت، والجامعة الأردنية في عمّان، وتحقيق مخطوط (تاريخ دمشق) لابن عساكر، ووضع البرنامج لإتمام تحقيقه بمشاركة بعض الزملاء... وكان من قبلُ قد عُهد إليه بتحقيق قسم شعراء الشام من كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهاني بأجزائه الأربعة التي صدرت بين عامي ١٩٥٥ و١٩٦٨.

لقد استهوت السياسة الدكتور شكري منذ أن كان طالباً في المرحلة الثانوية، فكان من رواد الحركات الطلابية في مكتب عنبر منذ أن انتسب إليه عام ١٩٣١، ولذلك انتمى عام ١٩٣٣ إلى (عصبة العمل القومي)، ولما أصدرت هذه العصبة

جريدة (العمل القومي) في السادس من حزيران ١٩٣٨ لتكون لسانها الناطق، وكلفت المجاهد عثمان قاسم برئاسة تحريرها، أخذ شكري يكتب زواياها، وينشر تعليقاته فيها، إما باسمه الصريح، أو باستعمال بعض الأسماء المستعارة، وكان أحياناً يستقلُّ بتحريرها ويصححها ويدفعها إلى المطبعة بمفرده، إلى أن توقفت في أوائل الحرب العالمية الثانية، فترك الصحافة السياسية واتجه إلى الصحافة الأدبية، فكتب في مجلات الرسالة والثقافة والأديب والآداب... والمعرفة والموقف الأدبي، ومجلة مجمع اللغة التي كتب فيها ستة وعشرين مقالاً بين عامي ١٩٥٢ و١٩٨٠.. وقد اتسمت مقالاته بالجدية والعمق والإحاطة والدقة والفهم والوعي، فقد كان الدكتور شكري أديباً موهوباً وناقداً بليغاً، أوتي قلماً سيالاً، وأسلوباً مشرقاً وجذاباً تأثر فيه بأسلوب طه حسين، وكان يقول:

«أعتقد أن العناية بالأسلوب عناية لا تَـكَلُّف فيها يجب أن تكون موضع اهتمامنا، فالأفكار الطيبة، والنتائج القيمة، والأبحاث التي استنفدت الجهد، يجب ألّا تبرز للناس في ثوب مهلهل». ولا يشك الأستاذ عبد الغني العطري (١٩١٩-٢٠٠٣) في (أن شكري فيصل كان أديباً ذَوّاقة وموهوباً، يتمتع بأسلوب قلّ نظيره بين الأدباء العرب قديماً وحديثاً، تأسرك كلماته الرقيقة، وتسحرك جمله وألفاظه... ولا غرابة فقد تلمذ عند عميد الأدب العربي طه حسين، فأعجب بأسلوبه وأحبه حتى العشق، فتشابه الأسلوبان، وامتزجا امتزاجاً عجيباً، حتى لم يعد من السهل على الباحث أو الناقد أن يميز بين الأسلوبين... لقد غدا أسلوب شكري نسخة ثانية عن أسلوب أستاذه طه حسين، فقد تَرَسَّم خُطاه في أسلوبه الساحر، حتى جرى مجرى الطبع فيه، وصار جزءاً من أدبه، وعلامة بارزة في كل ما كتب وأبدع...).

أستاذي شكري فيصل

عرفت الأستاذ الدكتور شكري فيصل عام ١٩٥٨ حين كنت في السنة الثانية

بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق، يوم كان يلقي علينا محاضرات عن (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، من امرئ القيس إلى عمر بن أبي ربيعة) وفي السنة الثالثة انتقل بنا إلى دراسة الأدب العباسي حيث درسنا عليه ثلاثة من شعراء هذا العصر هم: بشار بن برد، وأبو العتاهية، وأبو نواس، فكان يختار لنا نصوصًا من دواوينهم فيحللها ويشرحها ويبين خصائصها الفنية، وصورها، مستعيناً بذاكرته الخصبة، وحافظته الجيدة، وموهبته الخارقة... فقد كان بارعاً جدًّا في تحليل النصوص التي يقلّبها على شتى وجوهها، ويعتصر زبدة ما فيها من أفكار وخصائص وميزات، وكثيراً ما كنا نقضي ساعتين أو أكثر في دراسة النص الواحد الذي لا تتجاوز أبياته العشرة، فيأتي بأفكار ومعانٍ واستنتاجات كنا نستغرب كيف يفطن بها، ويصطادها خياله الخلّاق المبدع...

لا أذكر أنه حمل في حقيبته يوماً درساً مكتوباً، أو في جيبه ورقة وضع عليها رؤوس أقلام بل كان يمتح كلامه من ذاكرته الحية، وقريحته الفياضة... كان يتحدث بيسر وطلاقة وكأنه يغرف من بحر زاخر، لا يتردد ولا يتلجلج، لا يريد أن يقاطعه أحد من طلابه حين يكون مستغرقاً في الكلام، لئلا يقطع عليه سلسلة أفكاره، أو يعكر انسجامه في تحليل النصوص، أو سبحاته التي يغيم في ضبابها، محللاً وشارحاً ومفسراً، وما زلت حتى اليوم أحتفظ بمعظم ما أملاه علينا من محاضرات غير مكتوبة سابقاً، وأتمنى أن تتولى طباعتها إحدى دور النشر في الوطن العربي، حفاظاً على آثاره التي لم تجمع، ولا يزال أكثرها مبعثراً في بطون الصحف والمجلات العربية.

ومهما نسيت فلن أنسى يوم زرته في منزله، واطلعت على محتويات مكتبته الضخمة التي كانت تغص بالآلاف المؤلفة من الكتب التراثية والمراجع الأساسية، ورأيت السلّم الذي كان يستعمله للوصول إلى الرفوف العالية المحاذية لسقف المنزل، ولست أدري ماذا حل بهذه المكتبة الغنية التي أفنى زهرة شبابه في تجميع محتوياتها، فقد أُغلقت بعد

اضطراره إلى مغادرة دمشق والإقامة في المملكة العربية السعودية.

* * *

بعد أن أنهيت دراسة السنة الثانية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب عام ١٩٥٨، سافرت لقضاء عطلة الصيف في بلدتي (مشتى الحلو). دفعني تأثري به، وإشفاقي عليه من مواصلة العناء والسفر والسهر أن أكتب إليه رسالة أدعوه وأرجوه فيها أن يرأف بنفسه ويرتاح قليلاً في ربوع المشتى الجميلة، فأجابني برسالة تحمل تاريخ الثلاثاء ٢٩ تموز ١٩٥٨ هذا نصها:

عزيزي عيسى:

شكرت لك رسالتك الأخيرة، وإن جاءت متأخرة فيما تظن... ذلك أن كل شيء في حياتنا ينسحب على الصيف، حتى ليوشك أن يأكل... إننا في نهاية شهر تموز، ومع ذلك فلا يزال عندنا بعض الاجتماعات في مجلس الكلية، وبعض الرسائل، وبعض الأعمال الأخرى.

إن توتر الجو الدولي أنساني وألهاني عن أمر السفر، إلى جانب مشاغل الكلية، وحين أفكر اليوم أتساءل: هل في وسعي أن أخطو في ذلك خطوة جريئة؟

أمامي بحث مستعجل... وأعمال أخرى تتصل ببعض المخطوطات، ولا أدري كيف أتجاوز ذلك، يبدو لي على كل حال أني سآخذ باقتراحك الأخير، أن أزور الضيعة وحدي... وقد أصطحب زوجتي دون الأولاد.

أما متى يكون ذلك... فلا أدري.. ولك أن تنتظر مني رسالة في هذا.. قبل السفر.

وعلى كل حال فلن أكون من عدم القدرة بحيث لا أستطيع أن أؤمن لنفسي بيتوتة ليلة أو ليلتين وفي نيّتي أن أكتب لك مرة أخرى. أكرر لك الشكر والتحية، وأحمد الله على عافيتك من الوعكة التي ألمت بك، والسلام عليك ورحمة الله.

شكري فيصل

وبعد أن تخرجت في كلية الآداب عام ١٩٦٠ وعملت في التدريس والكتابة والتأليف، أنجزت كتاباً مخطوطاً بعنوان (أديب إسحاق باعث النهضة القومية)، فخطر لي أن أرسله إليه ليكتب مقدمته، فأجابني برسالة مؤرخة في ١٢/ ١٠/ ١٩٦٩ معتذراً بلباقته المعهودة عن كتابة المقدمة قائلاً:

عزيزي الأستاذ عيسى:

تمنيت مخلصاً أن أفرغ لبحثك القيِّم هذا مدة من الزمن، تساعدني على أن أتمثل كل ما فيه، ثم أن أكتب عنه... ولكني وجدتني في دوامة من المشاغل التافهة الصغيرة التي تمتص الوقت، ولا تغني عن الحق شيئاً. ولقد تخطيت كل صعوبة فقرأت في جلسة واحدة قَدْراً صالحاً اجتذبني واستمالني، ولكن العوائق كانت فوق ما أقدر على مطاردته.

إني أقضي هذين الأسبوعين وسط ضجيج السفر الذي أرجو أن تتيسر لي أسبابه قريباً، وبين ضجيج داخلي هو هذه المشاعر التي تتملك الإنسان وهو يهم أن يغادر وطنه، وأن يبتعد عن مغانيه.

لهذا أتمنى أن تتاح لي فرصة قراءة الكتاب مطبوعاً، وإن كنت أعتقد أني حينذاك سأخسر متعة السَّبْق إلى ذلك.

أتمنى لك أطيب الحظوظ من التوفيق في عملك هذا وفي أعمالك الأخرى، ولنا في الصيف المقبل إن شاء الله فرص كثيرات.

شكري فيصل

* * *

تعمدت نشر هاتين الرسالتين لأظهر من خلالهما مدى تقدير الأستاذ الدكتور شكري فيصل لطلابه، مع أنني كنت في عام ١٩٥٨ لا أزال في السنة الثانية من دراستي الجامعية، فهو لم يهمل رسالتي، بل أجاب عنها بكل مودة واحترام وتقدير،

واعتذر بلطف ولباقة عن عدم إجابة دعوتي لقضاء بضعة أيام في ضيافتي.

أما الرسالة الثانية التي كتبها لي بعد إحدى عشرة سنة من كتابة الأولى، فقد كانت ترجماناً أميناً لما كان يعانيه من ضغوط العمل، وكثرة المشاغل والأعباء والأسفار، ولما كان يحمله في قلبه من قلق وهموم لفراق أسرته ووطنه، فقد كان طوال حياته في حلٍّ ومرتَحَل... كما كانت تعبيراً صادقاً عن اللباقة والدماثة والشفافية التي كان يتمتع بها، والتهذيب الرفيع المتأصل فيه، وهل أجمل وأرق من قوله:

«أتمنى أن تتاح لي فرصة قراءة الكتاب مطبوعاً، وإن كنت أعتقد أني حينذاك سأخسر متعة السَّبْق إلى ذلك»..؟

* * *